تعليم الإناث وتربيتهن

بقلم الدكتور تقي الدين الهلالي
المدرس بكلية الدعوة وأصول الدين
بالجامعة الاسلامية

نحمد الله تعالى ونصلي ونسلم على محمد رسوله وعلى آله وصحبه

فى هذه المسألة اليوم ثلاثة مذاهب متباينة :

المذهب الأول :

عدم تعليمهن أكثر من قراءة المصحف بدون فهم ·

قال أصحاب هذا المذهب : انه أحسن المذاهب وأولاها بالصواب ، وهو الذى وجدنا عليه آباءنا وهم كانوا احسن منا · وتعليم النساء يفسد أخلاقهن ، فان المرأة التى لا تقرأ ولا تكتب تكون بعيدة عن متناول شياطين الانس ، فان القلم كما لا يخفى أحد اللسانين · فبعدم معرفتها للقراءة والكتابة تأمن شر هذا اللسان وبضرب الحجاب المتين عليها تأمن شر اللسان الثانى ، فيتم لها الامن ·

وكم رأينا من متعلمات لم يأتهن الشر الا من قبل تعلمهن ، وهذا فى زمان الاسلام والعفاف والأنفة العربية · وأما فى هذا الزمان فقد بلغ السيل الزبى ، واتسع الخرق على الراقع · فان معرفة الفتاة للقراءة توصل الى ذهنها جميع ما يقع فى الدنيا من الفساد والمخادنة وتملأ فكرها بهواجس خبيثة كانت فى عافية منها ·

وفى الحديث (لا تسكنوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن المغزل وسورة النور فهذه هى التربية الصحيحة ، فتعليم الكتابة ذريعة الى

المكاتبة مع الفجار • واسكانهن الغرف ذريعة الى التخاطب ، ولو بالاشارة مع الفساق ، وتعليمهن المغزل فيه شغل نافع لهن بما فيه من رياضة البدن والفكر وبما يثمره الغزل من المال الذى يستعن به على معاشهن • وتعليمهن سورة النور يحملهن على العفاف ، لان فيها حد الزنى والزجر عنه ، وحد القذف ، وتوبيخ فاعله ، وفيها حكم اللعان وما يلحق صاحبيه من العار والخزى ، وفيها قصة الافك والمرأة الطاهرة البريئة ، وبيان ما أعد الله لمن يقذف المحصنات الغافلات عن الشر المؤمنات بالله من العذاب الاليم فى الدنيا والاخرة • وفيها أمر الله للمؤمنين والمؤمنات بغض البصر وعدم اظهار زينتهن والنهى عن التبرج بالزينة ، وهذا والله نعم الادب للفتاة ، ولو عمل الناس بهذا الحديث لصلحت حال النساء ورأى الناس من الخير والعفاف ما لم يكن لهم به عهد منذ زمان بعيد •

المذهب الثانى :

تعليمهن وتربيتهن على منهاج دعاة التفرنج قال أصحاب هذا المذهب : نحن لا نريد أن نطيل القيل والقال ، ونضيع أوقاتنا فى الجدال الفارغ • هناك أمم راقية حرة سعيدة فى حياتها • وهناك أمم أخرى منحطة مستعبدة شقية فى حياتها • وقد نظرنا فوجدنا ان سبب سعادة تلك وشقاء هذه هو العمل والمال ، ، لذلك عزمنا على الاقتداء بالأمم الراقية ، لنكون مثلهم: نقتدى بهم فى التعلم والتعليم والتربية والتفكير والزى والمعيشة ونظام الحكم وفى كل شيء • ومن ذلك تعليم المرأة وحرية المرأة ومساواتها للرجل فى كل شيء ممكن بلا قيد ولا شرط • فهذا الذى نؤمن به ونعمل على تنفيذه وقولكم بدفن النساء فى قبور البيوت ومنعهن من التصرف فى أموالهن وشؤونهن ، ومنعكم لهن حتى من التنفس فى الهواء ومن رؤية طريقهن اذا دعتهن ضرورة للخروج ، بل تغاليتم حتى جعلتم صوتهن عورة ونقصتم حقهن فى الميراث فجعلتموه على النصف ويا ليت النصف الباقى يسلم لهن ، فانه يضيع فى اغلب الاحوال ، لان لزومها الحجاب وكون أخيها أو ابيها أو ابن عمها هو الرقيب عليها يضيع عليها النصف الذى تركتم لها ، لان هذا القريب غالبا يعتدى عليها فيأكل مالها والحجاب يمنعها من المطالبة بحقها فتحرم من كل شيء وتبقى فى ظلمات سجنها تشكو الى ربها ظلم الرجال وجورهم •

ولا يقف الامر عند ذلك ، بل يحرم العالم من نصفه ، سواء قلنا كما يقول الاوروبيون ان هذا النصف هو الافضل ، أو قلنا انه مساو • وكيف

تحيا أمة نصفها ميت تماما ونصفها الاخر أشل بسبب الجهل والانحطاط والرقى لا يتجزأ ، فاما ان يعم الآباء والامهات والابنـاء ، واما ان يكون الجميع منحطين • وهل سمعت بأمة رجالها مهذبون متمدنون ونساؤها فى غاية الجهـل والتوحش والبعـد عن الحياة ؟

ولماذا لا تصير المرأة حاكمة وملكة ورئيسة ومحامية ونائبـة فى مجلس النواب وعينا فى مجلس الاعيـان ؟ أليس سبيل ذلك كله هو العقـل والخلق وقوة الذهن وحسن التدبير؟ وهل تتجرءون أن تدعوا ان المـرأة محرومة من العقل والتفكير لا تصلح لشىء الا للنتاج كالفرس والبقـرة ؟ اذن لقد نزلتم بأمهاتكم الى أسـفل سافلين •

ولعمرى ان مثل هذهالافكار جديرة ان تحط الامم منعليائها وتسبغ عليها ثوب الخمول بل وتقبرها فى رمس الهمجيـة •

كم من ملايين من النساء شاركت فى الحرب العالميـة الاخيرة ؟ وعلى مذهبكم هذا البائس لا توجد امـرأة واحدة من بين النساء المقبـورات فى سجن البيوت تقدر ان تضرب بسهـم فى الدفاع عن الوطن •

وأما ما تشاغبون به من العفـاف ، فهو عادة والعادات دائما عرضـة لتتغير وان كان امس من الامور التى تلحظ بعين الاعتبار فهو اليوم مـن الامور التى تدعو الى السخرية • وقد رأينا عظماء الرجال فى البلاد السعيدة ذات السيادة المطلقة وفيهم الفلاسفـة والعلماء والامراء والوزراء لا يعبـئون بهذه الامور ولا يحسبون لها حسـابا وقد استقر عندهم ان الفتاة اذا بلغت سبع عشرة سنة فقد صارت حرة فى نفسها تصنع بها ما تشاء وتخـالط من تحب وتسافر وحدها ليلا ونهارا ، ونحن نقتدى بهذه الأمم ونترسم خطاها فى جميع الشؤون •

المذهب الثالث :

متوسط بين المذهبين السـابقين قد أخذ خير كل منهما وصوابه، وترك شره وخطأه • وذلك ان تعـلم المرأة تعليما يناسب ما خلقت له أولا وهو تدبير المنزل وملؤه سعادة ونظامـا وجعله منبتا صالحا للبنين والبنـات الابرار • وثانيا لتكون عونا للرجـل فى جميع شؤونه المعاشية والحربيـة والخلقية •

قال أصحاب هذا المذهب : ان أهل المذهب الاول مفْرطون ، وأصحاب المذهب الثاني مفرّطون ، ونحن نرد عليهم جميعا ، ونبين ما عندهم مـن الخطأ ، بادئين بأهـل المذهب الاول فنقول :

إن منعكم المرأة من التعلم أو حصره في قراءة حروف المصحف دون فهم لمعنى ما تقرؤه منه ، في غاية البعد عن الصواب ، فلا هو اسلامي ، ولا هو عقلي أو علمي محض • وان زعمتم انه موافق للاسلام وذهبتم في ذلك كل مذهب ، حتى احتججتم بحديث واه ساقط لا تقوم بهحجة عنداصحاب الحديث • هذا من جهة الرواية ، واما من جهة المعنى فهو باطل : فان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يقرأن، ويكتبن ، وغيرهن من الصحابيات ، والتابعيات ، والحافظات المحدثات ، اللاتي روى عنهن الحفاظ •• حتى ان كتب اسماء الرجال : كتهذيب التهذيب ، والميزان ، ولسان الميزان، والخلاصة ، وقبلها طبقات ابن سعد وغير ذلك كلها مشحونة باسماءعالمات وفقيهات وأديبات • ذلك في زمان عظمة الاسلام حين كانت راياته منصورة وجيوش اعدائه مكسورة مدحورة •

وأما آباؤكم المتأخرون الذين تريدون ان تقتدوا بهم في تجهيل النساء ، فلم يكونوا قط أهلا للاقتداء بهم ، فان زمانهم هو زمان الجاهلية الاخرة، وكل الذي يقاسيه الاسلام اليوم فهو نتيجة اعمالهم، ومع ذلك لا نسلم لكم أن أهل العلم من ابائكم كانوا يقولون بهذا القول المرذول ، وكيف وقد كان في زمانهم عالمات أديبات ، وان كن قليلات ، فلمينقطع الخير عنهن بالمرة•

وأما قولكم: ان القلماحد اللسانين، وان المرأة لجهلها بهذا اللسان وضرب الحجاب الشديد تأمن شر اللسانين، فقد أخطأتم في ذلك خطأ فاحشا • ألم تعلموا ان الفتاة التي ساءت تربيتها لا يمكن صيانتها ولو جعلت في حق وكانت صماء بكماء ، والفتاة التي ربيت على العفاف والتحصن لا يصل اليها سوء ولو كانت بين الرجال في غير ريبة ، وقد كانت النساء يرافقن رجالهن في الغزوات ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصحب معه نساءه في الغزو والحج • وكانت نساء الصحابة غير قابعات في بيوتهن بل يخرجن لاشغالهن ان كانت ، ويعلفن الخيل ، ويكدحن في اموالهن، وكان النساء يغزون بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك مسطور في كتب الحديث لا نطيل بذكره ، فلم يضرهن ذلك لقوة ايمانهن وكمال عفافهن •

والحاصل ان تعلم الكتابة والقراءة لا يصير المرأة فاسدة ولا صالحة وحده ، فان كانت صالحة فان تعلمها الكتابة والقراءة يزيدها سلاحا • وان كانت تربيتها فاسدة فبتعلمها تزداد فسادا ، لان العلم بالقراءة

والكتابة آلة صالحـــة للاستعمال فى الخير والشر معا ٠

وأما تعليم سورةالنور فهو منأعظم ما أدب الله به المسلمات ، وهو كنز عظيم ، وذخر جسيم ، ولـكن ينبغى للفتاة أن لا تهجر غير هـذه السورة من القرآن ٠ وسبيل تعليم القرآنهو القراءة ، والقراءة لا تنفع الا بمعـرفة المعنى ، ومعرفة المعنى لا يمكـــن الا بتعلم النحو والصرف واللغة ، ولا بد لمن تتعلمه من القراءة والكتابة وأنتم منعتم ذلك ٠ فهذا تناقض منكم وأنتم لا تشعرون ٠

يصيبوما يدرى ويخطىوما درى
وكيف يكون النـــوك الا كذلكا

وأما تعليم المغـزل فهـــو حسن ، ولكن اهم منه فى المدن على الاقـــــل تدبير المنزل وتدبيرالصحة والتمريض وما أشبه ذلك ٠

وأما قولكم ان الفتاةفى هذا الزمان اذا كانت قارئة تصل الى ذهنهاانواع الشر بقراءة صحف الخلاعة ومجلاتها، فهو صحيح ! ولكن الجاهلة ايضـا يصل اليها ذلك بالذهاب الى السينما ولو خلسة فى غيبة الرقيب وتصـل اليها بطريق الراديو ، ويصل اليهـا بطريق زائراتها ومحدثاتهـــا ٠ واذا فسد الجو لم تنفع المعتزل عزلته ٠

فلو انكم انتقدتممنهاج تعليم الفتاة وطالبتم باصلاحه وابداله بمنهـــــاج كامل يضمن للفتاة التربية الصحيحة بدل انكاركم للتعليم مرة لكان ذلكم اقرب الى الصواب ٠

أما اهل المذهب المقابل فقد أفرطوا وتجاوزوا الحدود وضلوا ضلالا بعيدا ولا بد ان نناقشهم الحساب ، ونبين ما فى حملتهم من الحجج الواهيـــــة الداحضة ، التى هى أوهـن من بيت العنكبوت فنقول لهم : أما قولكم ان أمم العالم قسمان : أمم راقيةسعيدة، وأخرى منحطة شقية فهو حق ، وأما قولكم انسعادة أولئك السعداءجاءتهم من أعمالهم واحوالهم فهو صحيـــــح ايضا ، ولكنه مجمل يحتاجالى تفصيل وبيان ٠ وفى اجمالهأمكنكم ان تدخلوا ما أدخلتموه من المغالطة ٠ وبيان ذلك أولا ان الامم الاوروبية تختلفاختلافا كثيرا يكفر من أجله بعضها بعضا ، حتى ان الكاثوليكى لا يقدر ان يتزوج بامرأة بروتستانتية ، وان تجرأ على ذلك عوقب من قبلالكنيسة بالحرمان وهو مصيبة اجتماعية عظيمـــــة ٠ ويختلفون فى مناهج الحـــكم ، حتى يفضى بهم ذلك الى أن يفنى بعضهـم بعضا بلا ابقاء ولا رحمة ٠ ويختلفون فى شؤون النســـاء فمنهم من يرى وجوب مراقبة الفتاة والمحافظة التامة عليها ومنهم من يطلق لها العنــــان

بعد بلوغها سن الرشد القانونى . ومنهم من يجيز البغاء الرسمى كالامم اللاتينية لحصر الفساد فى أماكن محدودة حسبما ظهر لهم ، وهؤلاء يعاملون البغيات بشىء من الرحمة . ومنهم من يحرم البغاء الرسمى كالامم الجرمانية والامة البريطانية ، وهؤلاء يعاملون البغيات بكل قسوة حتى انهم ليجعلونهن طبقة منبوذة مستقذرة كالذباب ، فلا يمكن البغى ان تتصل بأحد من النساء والرجال ذوى الشرف والمروءة . فهم عندهم كما قال الشاعر :

لتقعدن مقعد القصى
منى ذى القاذورة المقلى

ثم ان هذا التساهل فى العرض الموجود عند الاوروبيين لم يكن ناتجا عن المدنية والرقى ، بل لا علاقة له بهما أصلا ، وانما هى عادة ورثوها عن ابائهم فى زمان جهلهم وهمجيتهم ، كما يشهد بذلك تاريخهم ، وكذلك بعض الامم المجاورة للبحر الابيض المتوسط من غير الاوروبيين ، وهى قبائل البربر الذين ليس عندهم من الاسلام الا اسمه : كآبن مكيلد ، وآيت سخمان ، واشقيرن ، وآيت اسحاق ، وآيت هودى وغيرهم . وهذه القبائل فى الالوان وبرودة الدم مثل اهل شمالى أوروبة ، والغيرة عندهم معدومة ، حتى انى رأيتهم اذا وجد أحدهم مع زوجته رجلا يطلق رصاصة فى الهواء ، لا ليصيب احدهما بأذى ، بل ليعلن الامر ، فيجتمع الناس من كل حدب ينسلون . فيقول لهم الرجل : اشهدوا على فلان فقد وجده مع زوجته ، فيقولون : سنشهد لك بما رأينا . فاذا اجتمع ملؤهم فى الحى يدعو الزوج ذلك الرجل الى المحاكمة ، فيأتى ويحضر أمام شيوخهم ، فيتهمه ، ويحضر الشهود ، فيشهدون ، ومع ذلك كله يجحد المتهم ويقول : انه لم يفعل شيئا ، فيحملون عليه طبقا للعرف ان يدفع الى الزوج ستة أريلة وكبشا ، فيمعن المتهم فى الانكار والامتناع من اداء الغرامة ، فيهم الزوج بقتله ، فعند ذلك يجرى الناس فى الصلح بينهما ، فيترك الزوج احدى الغرامتين ، اما الكبش واما ستة أريلة .

وما لنا نذهب بعيدا ، فقد جاء فى صحيح البخارى ان رجلا كان عنده غلام عسيف أى أجير ، فزنى هذا الغلام بامرأة مخدومه ، فسأل الرجل بعض الناس ممن ظن ان عندهم علما ، فأفتوه أن على الغلام ان يدفع لزوج المرأة مائة شاة ، فدفعها أبوه عنه . ثم ذهب الى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بالقصة ، فخطأهم النبى صلى الله عليه وسلم فى حكمهم وقال : « أما الغنم فهى رد على أبى الاجير ،

وأما الاجير فعليه جلد مائة وتغريب عام . وأما المرأة فبعث اليهـا النبى صلى الله عليه وسلم رجلا اسمهأنيس وقال : (اغـــد عليها فان اعترفت فارجمها) .

فأنت ترى ان مثل هذا الحـكم البربرى وجد فى العرب فى زمـان النبى صلى الله عليه وسلم . والبشر هم البشر لا يمتـاز شعب عن شعب الا بأخلاق الانبياء وعلومالمدنية ، فمن جمع بين هــذين جمع السعـادة الكبرى .

والمقصود هنـا ان الاوروبيين لم يتسامحوا فى شأن النساء نتيجـة لنهضتهم المدنية ، وانما ساروا – فى هذ هالقضية – على نهج من قبلهم ، وأقروه بالعمل عليه ، وتأليفالقصص التمثيلية وغيرها .

أما حرية المرأة فليست مرتبطـة بتهتك النساء ، وسقوط عفـافهن ، فقد توجد حرية النساء مع تمـــام العفاف ، وقد توجد عبوديـة النساء مع غاية التهتك .

ونحن وجدنا آباءنا الاولين الذين سادوا العالم علما واخلاقا وحضـارة ورقيا ، وكنا لهم نحن شر خلف لخير سلف ، فقد كانوا فى قضية النساء على صراط مستقيم ، فكانت المـرأة عندهم عضوا حيا نشيطا تشاركهــم فى العلم والعمـــل فى البيت وفى المزرعة وفى ميدان القتال ، عليهـــا حجاب يحفظ شرفها ومكانتها ، ولا يمنعها من أخذ حقها اذا ظلمت ، ولا منمشاركة الرجال فىالاعمال السلمية والحربية عند الحاجة . ولذلك أدرك أسلافنا من المدنية أعلاها ومن الرقى ذروته رجالا ونساء ، ولم يمنع أدب القرآن المرأة من الرقى ، بل هو الذى أوصلها الى أسناه مصونة العـــرض والعقل والشرف .

وأما اباؤنا المتأخرون فقد انحرفوا عن الجادة فى الدينوالدنيا وعلومهما فلما عجزوا عن اقامة صروح العفـاف والاخلاق الكريمة ، وتنفيذ حـــدود الشرع المحمدى العظيم ، لجـأوا الى الاختفاء والفرار والاختباء ، فغلوا فى الحجاب حتى دفنوا النساء كما قلتم، ومنعوهن من الخروج ، واذا خرجـن يفرضونعليهن ستر وجوههن الا عينا واحدة او نصف عين، وجعلوا صوتهن عورة ، وحديثهن مع الرجـــال وان كانوا صالحين ، وبحضرة محارمهـن او ازواجهن وقاحة . وزادوا على ذلك فقال بعضهم بمنعهن من القـــراءة والكتابة ، فضاعت بذلك حقـــوقهن التى اعطاهن الشرع المحمدى كالميرات والبيع والشراء والشهـــادة والوكالة وسائر التصرفات ، وصرن بالاموات

أشبه منهن بالاحياء ، بل تعدى الامر الى ان جرت العادة بدس البكر فى ظلمات الخدور وحجبهـــا حتى عن النساء ، فلا تراها اعين والديهـــا واخوتهـــا . وبطلت بذلك السنة المحمدية التى قال فيها الرسول الكريم عليه السلام : (اذا أراد احـــدكم ان يتزوج امرأة فلينظر اليها ، فانه أحرى ان يؤدم بينهما) أى فان ذلك اجدر ان يوقع بينهما الاتفاق اذا رأى كل منهما الاخر فى غير ريبة ولا خلوة .

والجرائم التى وقعت بالغـــلو فى الحجاب (على غير وجهـه الشرعى) كثيرة جدا ومشاهدة . وبذلك صارت حـــوادث التزوير تقع فى الزواج فتكون عند الرجل ابنتان مثلا احداهما جميلة والاخرى دميمـــة ، فاذا جاء خاطب لا يعرفهما ولا تعرفهما العجوز التى تنوب عنه فى الخطبـة ، وكانت الجميلة اسمها ليلى والدميمة اسمها دعد يوهمونها ان الدميمة هى الجميلة ويغالطونها فتقع الكارثـة على رأس الرجل المسكين ويذهب ماله ضائعا .

ولو قام رجال عقلاء صالحون بتغيير هذه العادة ورد النساء الى ما كن عليه فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهو ما عليه نساء القـرى والبوادى فى البلاد الاسلامية بأسرها من أول ظهور الاسلام الى اليـــوم ـ مع أدب غض البصر ونحوه لوجب أن يصغى لاصلاحهم وان يعانوا عليه ، ولـكن اكثر الذين يدعون الى ما يسمونه : تحرير المرأة واعطاءها حقوقها ليس لهم فى قلوب الامة ثقة ولا مكانة ، ولا تطمئن اليهم النفوس ، وما لهـم اخلاق ولا غيرة على الدين والعرض ، والجمهور لذلك متهمهم بان لهـم فى دعوتهم مآرب أخرى كمآرب الذئـب فى رعى الحملان . وهؤلاء لا يشكون فى ان النساء وان كان قد اصابهـن بالغلو فى الحجاب شر عظـيم ، فان الشر الذى اصـــابهن وسيصيبهن بالتبرج والتهتك ليس له حـدود ، وهو مبنى على شفا جرف هار اعظـم بكثير من ذلك . فقضية اصلاح حال النساء لم يعالجها طبيب ولا راق ، بـــل صارت بين حزبين منْرطين ومفرّطين . ونحن علم الله لو رأيناكم ـ يا دعاة تحرير المرأة ـ داعين الى اصلاح النساء دعوة مبنية على أساس متين من العقل والحكمـــة وتوخى صلاحهن وسعـــادتهن ، وان يصرن أمهات كاملات الأمومة ينتجـن اناثـا صالحات ، وذكورا صالحين ، ويملأن بيوتهن سعادة ، لو رأينـاكم كذلك لآزرناكم وتعاونا معكم ، ولكنا رأينا فيكم الطيش ، وسوء النية ، والتغرير بالفتيات الغافلات ، ومخادعتهن على عفافهن ، وتزيين الموبقـــات لهن ،

وتصيدهن بكل حيلة ، وقعودكم لهن كل سبيل مما لا يفعله العدو بعدوه ، فرأينا ان جمود الجامدين أخف ضررا مما تدعون اليه ٠

وأما قولكم : انكم فى هذه المخادعة ونصب الحبائل التى تصيب البيوتات بالدمار والخراب تقتدون بأهل أوربة٠٠ فهو من العجب العجاب ! فقد تقدم ان أهل أوربة لم يصنعوا ذلك بأيديهم وانما هو صنع أجيال مضت ، بل حاولوا ان يصلحوا تلك الحال ، ودونكم البيان :

من المعلوم ان التزوج فى البلاد التى لا تزال متمسكة بشريعة الاسلام وآدابه سائر سيرا حسنا ، ومعدل المتزوجات نحو خمس وتسعين فى المائة ، مع ما تعلمون من شدة ذلك الحجاب ٠ وما ذلك الا بفضل هداية الاسلام ٠

أتعلمون ان حكومة هتلر لما رأت ان المتزوجين فى المدن الالمانية من الرجال والنساء لا يزيد عددهم على اربعين فى المائة سنت قانونا يقضى بتقديم خمسةالاف مارك (أىأربعمائة دينار، حسب الصرف فى ذلكالزمان) لمن يريد التزوج ٠ وهذا المبلغ يكون سلفا عند الزوجين ، فان ولد لهما ولد عفى لهما عن قسط منه ، وان استمرت المرأة تلد الاولاد اسقط عنهما دفعه ٠

وسنت هذه الحكومة ايضا قانون تكريم الوالدات فىكل سنة فىالربيع وخصصت الحكومة لهن تحفا وهدايا ذات بال ٠ وسنت قانونا يقضى بمساعدة كلوالدين بلغ عدد اولادهما خمسة مساعدات مالية طيبة مع اسقاط الضرائب عنهما ٠ هذا وكانت ضرائب العزاب رجالا كانوا أو نساء فى زمان الحرب العالمية الاخيرة تساوى ثلث دخل الشخص فى كل شهر ٠ اذا كان راتبه عاليا ٠ والاباء والامهات الذين بلغ عدد أولادهم خمسة معفوة من الضرائب ٠ ومعذلك كله لم يزد عدد المتزوجين فى المدن على اربعين فى المائة ٠ أما فى القرى فقد كانت نسبة المتزوجين أعلى من ذلك لضرورة التعاون على المعيشة ٠

فان قلت وأى الجنسين كانيتحمل تبعة قلة التزوج فى المدن ؟ أقول بلا تردد ولا شك الرجال ، لان كل امرأة أيم سواء كانت غنية ام فقيرة كان قلبها يحترق شوقا الى الزواج ، حتى ان الانسان لا يجد موضوعا يتكلم فيه مع الأيم ليسرها ويطيب نفسها احسن ولا مماثلا لموضوع الزواج ٠ ولا سيما ان كانت من أولئك البائسات اللاتى تسلط عليهن احد لصوص الزواج (هايرات شفندلر) فان هؤلاء اللصوص المجرمين كم أهلكوا من فتيات كن كأزهار الربيع فى غاية

التألق والسعادة والنعيم فنقلوهن الى جحيم الشقاوة وقضوا عليهن القضاء الاخير. وهؤلاء الشياطين يردون المدن فى صورة شبان قد بلغوا الغاية فى الجمـــال والتأنق وأجادوا كل شيء يغرى الفتاة ويسيل لعابها من حسن الهندام والظرف ولطف الحـــديث واتقان جميع انواع الرقص ،والتبذير فى النفقة ، وحسن الذوق فى انتقاء جميع الاشيـــاء وانتقادها . وهؤلاء لهم أسماء متعددة وكلها من اسمـــاء البيوتات الارسطقراطية . وقد تكون لهم هويات جوازات متعددة تثبت ذلك ولا يصيدون الا بنـات كبار الاغنيـاء فيظهر اللص أولا للفتاة انه ابن أمير أو غنى كبير ، ويذهب امامهـا الى البنك ويخرج مبالغ كبيرة من المال او يبعث برقية الى احد شركائه فيأتيه المال فى الحال ، وترى تلك الفتـــاة صور الفتيات اللاتى أوقعهن ســـوء طالعهن فى حبالته ومكاتباتهن معه ، فترى جمالهن وعلو أدبهن وكونهن من بنات البيوتات فتزداد استهواء وفتنة حتى اذا نضجت ثمرة خداعه وعميت الفتاة وطاش لبها ، تظاهر بتأخـــر حوالة عظيمة كان قد طلبها من أبيـــه واخترع لذلك عذرا ، فتقوم الفتـــاة الغرة وتأتيه بالمبلغ الذى يريده مـــن المال ، فيأخـــذه ، ولا يعسر عليه ان يخترع سببا لسفر عاجل وانه سيرجع اليها ، فيكون آخر العهــــد به ، وقد يتركها فى بعض الاحيان حامـــلا ، ولكن هذا نادر جدا لانهم يحتاطـــون للحمل باستعمال الوسائل المانعة منه، ولا يكادون يتساهلون فيها الا بعـــد عقد النكاح بصورة رسمية .

وهل يعلم هؤلاء الدعاة ان المرأة فى أرقى دول أوروبا تشعر بالحاجة الى حماية الرجل وقواميته عليهـــا ، ورئاسته ، ولا يغنيها عن هذه الحاجة مال ولا علم ولا شرف ولا حسب ولا منصب ابدا . ومما يحكى فى هـــذا المعنى ان الملكة البريطانية العظيمـــة فكتوريا جاءت يوما الى غرفة زوجها ، فدقت الباب ، فقال من بالبـــاب ؟ فقالت أنا الملكة . فقال : لا حاجة لى بالملـــكة . فانتبهت فى الحين الى خطئها وتلافته ، فقالت افتـــح ! أنا عزيزتك فكتوريا . فقال الان أفتح.

وخضوع الانثى للفحل أمر جعله الله فى طبع كل أنثى من الحيـــوان الابكم والناطق ، ولا سبيل الى ازالته عنها ، لانها لا تقدر ان تكون أنثى بدونه . كما جعل الله فى طبعهـــا الدلال والغنج أيضا ، فهذان الخلقان معجونان فى فطرتها .

هذا ولا تستغنى المرأة عن حماية الرجل ولو فى أرقى الامم فقد أخبرتنى « فراوزلى » فى مدينة « بن » انهـــا حين كان زوجها فى قيد الحياة ، كان

يجرعها غصصا ، بسبب خليلة كانت له ، ولكن بعد وفاته نسيت كل ذلك وحزنت على فراقه وقد ترك لهافراغا عظيما فى كل شيء • حتى انهـا اذا كتبت الى شركة تطلب منها بضاعـة تحذف آخر اسمها ليظن المكتب اليه انها رجل فلا يتهاون بطلبها •

واخبرتنى ايضا انه يأتى الى بابها احيانا بعض المساكين الذين يسألون الصدقة على الابواب خلافا للقانون ، فترحم السائل ولا تحب ان ترده ، ولكنها تلقى اليه الفلوس من شـق الباب ، وتخاف ان تفتح له الباب ، فيكون لصا فى صورة سائل •

وكانت لى فى برلين جارة لهـا ثلاثة أولاد صغار ، فكنت حين اسمع صفارة الانذار اسمع معه بكاء المرأة وأولادها ! لان عليها أن تملأ سـطلا كبيرا تعده لاطفاء الحريق وتوقـظ اولادها الثلاثة ، وتلبسهم ثيابهم ، وتأخـذ لهم شيئا يأكلون وشيئـا يشربون ، لان مدة الغـارة قد تدوم ست ساعات وأكثر ، وفى ذلكالوقت ــ وهو من أول الحرب الى سنـة ١٩٤٢ ــ كانت الغارات الجـوية لا تأتى فى الغالب الا ليلا •

وبهذه المناسبة أذكر ان الغارات فى أول زمان الحرب كانت قسمين: غارات روسية ، وعلامتهـا ان تأتى بعد الغروب بنصف ساعة لقـرب الروس ، وهذه لم يكن الالمان يخافون منها ، واكثرهم لا ينزلون الى الملاجيء وغارات انكليزية ، وهذه كانت تفتك فيهم فتكا ذريعـا ، وكان الالمانيون يحسبون لها حسابا وأى حساب •

قلت : انى كنت اسمع بكاء تلك الأم وأولادها ، ولم يكن لهم جار من الرجال غيرى ، فكنت آخذ احدالاولاد فى يدى وننزل الدرج ، وفى اكـثر الاحيان لم تكن الغارة الجوية تمهـل هذه المـرأة حتى تستعد للنزول ، فكانت رعود الغارة والمدافع المضـادة لها وبروقها تبتدىء قبـل نزولنا ، فكان هؤلاءالمساكين يتوقفون مرتجفين عن عبور المسافة التى بين دهلـيز الدرج وباب السرداب ، لان هـذه المسافة مكشـوفة تحت السماء بلا حاجب ، فكنت أشجعهم حتى يعبروا، فاذا نزلت معهم أربـع درجات من السرداب رجعت ، لانى لم أكن أختبيء من أجل خصومـة وقعت بينى وبين مراقب المخبأ • وفعلا وقعت القنابـل على تلك الدار واحترقت الغرفة التى كنت أنام بها بما فيها ، ولكن بعـد خروجى من ألمانية •

ولو ذهبنا نعدد الأدلة على حاجـة المرأة الى قوامية الرجل وحمايته لطال بنا القول •

وأما قساوة أرقى الاوروبيين مـن

الامم على النساء وعدم الرحمة والرفق بهن ، فحدث عن البحر ولا حرج ·

فمن ذلك ان العادة جارية عندهم بان المرأة لا تقــدر ان تتزوج حتى تحضر صداقا أقله خمسة الافمارك ، واكثره لا حد له· ومن اسعدها الحظ بالتزوج فعلى حسب مالهـا تقــدر ان تجد زوجا ملائما لها، لان الزوج لا يرغب فى المرأة لجمال ولا لدين ولا لحسب ، بل يقدم المال على ذلك كله·

فترى المرأة تقضى شطرا كبيرا من شبابها فى العمل لجمع المال الذى به وحده يكون لها بعض الامل فى الزواج، ففى برلين تشتغل الخادمة بثلاثـين (ماركا) ، وفى المـدن الصغيرة بعشرين (ماركا) مع أكلهـا فى كل شهر ، وتضيق على نفسها فتحرمهـا من كل شىء لتجمع صداقا ، وقدتكون لها أم عجوز ضعيفة لا بد لهـا ان تساعدها من ذلك الراتب القليـل ببعض الماركات · فكم يجب عليها ان تخدم من السنين حتى تجمـع الاف الماركات ؟ واذا جمعت مقدارا يمكنها من التزوج بفقير مثلها ، تحتاج الى أن تؤم المجتمعـات كدور الرقص والسينما وغيرها ، واذا وجدت فرصة للحديث مع رجل تغتنمها ·

والعادة جارية بان الرجل هـو الذى يدعو المرأة للرقص ، وهو الذى يبدأها بالكلام فقد تذهب الى ناد من الاندية التى يجتمع فيها الناس وتنفق شيئا من المال ، وهى به جد ضنية ، فتدخل دار السينما أو القهوة ، أو المطعم ، او دار الرقص ، ولا تظفـر بأحد أصلا فتعود خائبة ، ثم تنتظـر حتى تجد فرصة أخرى ، لان مثـل هذه الفرصة لا تتيسر لها فى كل يوم، بل أحسن احوالها ان تتيسر لهـا فى الاسبوع مرة ·

واذا ساق الحظ لها واحـدا فقد يكون مخالفـا لها فى الدين ، وقد يكون مخادعا ·

فاذا وجدت رجلا موافقـا فى كل شىء فلا بد ان تجتمع به الفينة بعد الفينة وتختبر عشرته وحـاله ، فان أعجبها فان العادة التى جـرت ان يتواعدا على الزواج ويبقيـا سنين طويلة متواعدين ، وفى طيلة مـدة التواعد تظل خائفـة عليه ان ينقض عهده ويتركها ·

وهذا كثير جدا : أعرف كاتبة فى القسم الشرقى من جامعة (بن) كانت فى قلبها غصة لا تفارقهـا أبـدا · وذلك ان رجلا عاهدها على التزوج ، وبقى معها اربـع عشرة سنة يعيش معها كما يعيش الزوج مع زوجته ، اى يجتمع بها فى اوقات فراغهمـا ، ويخالطها كما يخالط الرجل زوجته، لا انه ينفق عليها شيئا أو يتعـاونان

على المعيشة ، لان ذلك انما يقع بعد عقد النكاح والاجتماع الرسمى ، فيسميان زوجين ، وأما قبل ذلك فيسميان متخاطبين فقط • وبعد مضى اربع عشرة سنة قضت فيها زهرة شبابها معه ، وجد امرأة أكثر مالا منها فتزوج بها وتركها تتقطع حسرات •

وهذا نموذج من ألوف من امثاله• ومن غريب ما وقفت عليه من شؤون المتخاطبين عندهم ان الرجل يخطب المرأة فيتفقان على الزواج ، ويبقيان مدة طويلة يتعاشران عشرة المتحابين، وهى كما قلنا مخالطة تامة كمخالطة الزوجين، ثم يعقدان النكاح ويجتمعان على الزواج ، فلا يلبثان ان تسوء عشرتهما ، فيقع الشقاق بينهما ثم يعقبه الفراق •

ومن عجيب ما سمعت من ذلك فى مدينة (بن) الالمانية ان متخاطبين بقيا مدة عشرين سنة متعاشرين فى غاية الوفاق والوئام ، ثم تزوجا ، فلم يلبثا الا سنة واحدة حتى وقع الطلاق بينهما ، وكانت تلك السنة كلها خصاما ونزاعا بينهما ، فسألت عن سر ذلك فأخبرونى ان الرجل والمرأة ما داما متخاطبين يستر كل منهما اخلاقه الحقيقية ويتخلق بغيرها مصانعة وتملقا لصاحبه ، مخافة ان يمله ويفسخ الخطبة ، فاذا وقعت عقدة النكاح بينهما يسقط كل واحد منهما الكلفة ، ويزول التملق ، وتنكشف مخبآت الاخلاق والعادات ، فيتلوها التنافر ثم النزاع والخصام ثم الطلاق •

وبهذا تعلم ان قول بعض الاغرار من الشرقيين باستحسان مخالطة الخاطب لمخطوبته قبل العقد ، وخلوته بها ، ومعاشرته لها ، زاعما ان ذلك يكشف لكل واحد منهما دخيلة الاخر، فيقع الاتفاق ، فالحب هو أساس الزواج السعيد ، ان هذا القول باطل، وحديث خرافة ، لان هذين المتخاطبين لا يمكن لاحد منهما ان يعرف طباع صاحبه الحقيقية الا بعد اسقاط الكلفة ، وذلك يكون بعد العقد ، ولانهما غير معصومين من المباشرة المحرمة وعاقبتها الوخيمة فى العاجل والآجل •

ولذلك حرم الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم الخلوة بالاجنبية وقد جاء فى الخبر (ما خلا رجل بامرأة ، يعنى أجنبية ، الا كان الشيطان ثالثهما) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدخول على المغيبات ـ يعنى النساء اللاتى أزواجهن غائبون ـ وسئل عن الحم ، وهو أخو البعل ، هل يغتفر دخوله على زوجة أخيه وخلوته بها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (الحم الموت) يريد انه شر من البعيد فى الخلوة • ونهى صلى الله عليه وسلم أن تسافر المرأة الا مع زوج أو ذى محرم • كل ذلك كان منه محافظة على العرض والنسب

والدين ، وصلاح ذات البين ،وصيانة لحقوق الرحم . أما نظر المتخاطبين كل منهما الاخر فى غير خلوة ولا ريبة فلا بد منه ، وقد أمر به النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدم . وقولهم : ان الزواج السعيد أساسه الحب ، فيه نظر فان الحب على أنواع ، منه : حب الشهوة كحب الطعام والشراب وركوب الخيل ، وما اشبه ذلك ، فهذا الحب هو فى الحقيقة ألم يحز فى النفس ، ويعظم بفقد المسكن ، وهو قضاء الغرض من المطلوب ، فاذا ظفر صاحبه بمطلوبه سكن ألمه وضعفت رغبته فى ذلك المطلوب ، وصار ينظر اليه بعين غير العين التى كان ينظر اليه بها عند فقده . وقد تستمر هذه الرغبة فى الضعف حتى تنعدم ، والدليل على ذلك ان كثيرا من الناس كانوا يعشقون نساء ، وبذلوا فى سبيل التزوج بهن كل ما يستطيعون بذله ، فلما وصلوا الى غرضهم لم يلبثوا ان ملوا أولئك النساء ، ولم تبق لهن قيمة عندهم ، لانهم كانوا يحبونهن حب شهوة ، فلما قضيت قضى معها الحب نحبه . وهذا عام فى البشر : الشرقيين منهم والغربيين . وقد سئل بعض الاوروبيين : من تحب من النساء ؟ فقال : أحب جميع النساء ، ما عدا زوجتى ! فان لم يزل ذلك الحب بالمرة ، فانه يضعف كثيرا جدا ، فاذا اتفق ان المحبوب كان غليظ الطبع جافيا سيء الخلق ، كان ذلك أدعى الى موت ذلك الحب بسرعة وربما انقلب بغضا وعداوة .

ومنها حب ميل زوجي وهذا اطول عمرا من الذى قبله ، فان صادف ان المحبوب كان متصفا بأخلاق ملائمة لطبع المحب ، ازداد ذلك الحب قوة على مر الايام وثبت. وليس مقصودنا ان ننفى أن حسن الصورة من دواعى الحب الصحيح ، ولا نقول بغض النظر عن كل حسن جسمي والاكتفاء بالجمال النفسى فان هذا خطأ فان الحب الصحيح لا يتم الا اذا كان المحبوب جميلا فى نفسه وهذا الحب يبنى على الزواج الشرعى الذى يكون كل من الزوجين قد رأى صاحبه قبل الزواج ورضى به زوجا بدون اكراه ولا اغراء، فان صادفه الاتفاق فى الاخلاق ومتانة الدين ، كان ذلك أقوى له وارسخ لقواعده ، وهذا هو الذى أمر به الاسلام .

وأما اعتراضكم على الاسلام فى جعله ميراث المرأة نصف ميراث الرجل ، فهو اعتراض ساقط ، لان الرجل قد فرض عليه الاسلام فرائض مالية لم يفرضها على المرأة ، منها دفع المهر ، ومنها النفقة على الزوجة والاولاد والوالدين الفقيرين ، زيادة على ان عليه حماية هؤلاء ، والدفاع عنهم فهو فى حاجة الى المال ، بخلاف المرأة فحاجتها فى الجملة الى المال قليلة .